مع الأحداث

الطاغوت يصنع نهايته

الأخ ابن دمشق

أين المسلمون ممّا يجري في سورية ؟ ..

سؤال يتردّد في صدور كثير من أبناء سورية المجاهدة الصابرة .. مع ثقتهم بالله ونصر الله ، ومعرفتهم الأكيدة أن الشباب المسلم المخلص في كلّ مكان معهم ، وأنّه على مثل اعتقادهم بأن الباطل زاهقٌ لا محالة مهما تجبّر ، وأن الحق في النهاية ظاهرٌ كما وعد الله

ولكن ما مدى معرفة الشباب المسلم المخلص في كل مكان بأحداث سورية ؟ .. وما مدى معرفتــه بواجباتــه المباشرة وما يمكن أن يقدّمه لينتصر الحق على الباطل في سورية ؟ ..

إنّ قصة الطاغوت في سورية ، كقصة الطاغوت في كلّ مكان وزمان ، قد تتبدّل بعض المسمّيات ، وقد تختلــف الوسائل وتتفاوت الدرجات .. ولكن الطريق إلى السلطة والتشبّث بالسلطة ، بالإرهاب والظلم ، علامات مميّــزة لا تتغيّر .. كما أن نهاية الطاغوت واحدة لا تتغيّر ، طال به العهد أم قصر

وقصة الجهاد في سورية ، كقصة الجهاد في كلّ مكان وزمان ، إيمان ووعي وتصميم وعمل وتضحية .. وصــبر حتى يتحقّق النصر ، يقوم على فئة قليلة ضعيفة في أعين الناس ، كبيرةٍ قوية عند الله عزَّ وجلّ .. قد تجتمع عليها قوى الباطل ، ولكنّها تبذر بذور النصر على جميع الأحوال .. وربما حصدته بنفسها ، أو حصدت الفوز الأكبر بالشهادة ، وحصد النصر المؤمنون الصادقون على طريقها من بعدها

هي .. هي المعركة لا تتبدّل في جوهرها ، وإن تغايرت أشكالها ، وهي .. هي النتيجة على الدوام وفق ســنّة الله في خلقه

وعندما يقف الشباب المسلم المخلص على هاتين الصفحتين المتقابلتين من تاريخ ســورية المعاصــر ، صــفحة الطاغوت السوداء ، وصفحة الجهاد المضيئة .. ويتبيّن من وراء الحواجز والسدود معالم الجبهات ومداها ، ويتعــرّف على حقيقة القوى المؤثّرة من ورائها ، يمكن له أن يحدّد بنفسه واجبه الكبير ، وأن يحمل حملاً حقيقياً أعباء المسؤولية الجسيمة لنصرة قضية الإسلام والمسلمين في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الإسلام في سورية وفي كلّ مكان

وإذا كان التاريخ يروي قصة الطاغوت وقصة الجهاد أحداثاً وتــواريخَ وأسمــاءَ وأرقــامَ ضــحايا ونكــسات وانتصارات .. فإن الشعب في سورية يعرفها واقعاً رهيباً عاشه ويعيشه بنفسه .. بدمائه .. بضحاياه .. كما يعرفهــا مستقبلاً يتطلّع إليه ويصنعه بيديه

وشتّان شتّان ، بين قارئٍ للتاريخ وإن تأثرّ به .. وصانع للتاريخ . وممّا يتوجّب على الشباب المسلم في كلّ مكان –وهذا ما ينتظره إخوتهم في سورية منهم– أن يشاركوا في صناعة التاريخ ، بأن يعيشوا واقع إخوتهم في سورية ، وفي كلّ مكان ، إحساساً وتفكيراً وتحرّكاً واعياً بصيرا .. وبذلا

قصة الطاغوت والجهاد لإسقاطه ، ترويها قلوب أبناء الشعب بصورة غير التي ترويها بها أقلام المــؤرّخين مهمــا اجتهدوا في التعبير ، ترويها القلوب .. بطشاً وخوفاً من البطش حيناً ، وإمعاناً في الظلم وتمرّداً مكبوتاً علــى الظلــم حيناً آخر ، وإهداراً للكرامات ووأداً للحريات وثورة عارمة للحق في النهاية

وترويها الألسنة .. ألسنة أبناء الشعب أيضاً ، همساً يتجنّب آذان المخابرات في البداية ، ثم تحدياً صريحاً للاعتقال والتعذيب في مرحلة لاحقة ، ثم بركاناً متفجراً جارفاً للطاغوت بكلّ أركانه في النهاية

وتلتقي صرخات القلوب والحناجر من أبناء الشعب كلّه .. مع بطولات جهاد الفئة القليلة الكبيرة على ســاحة الإخلاص والمصير المشترك ، فتمتزج معها ، وتتحوّل معاً إلى لهيبٍ حارق .. وآنذاك ينتهي الطاغوت ، وتنتهي قصته

وليس يُرجى من هذه السطور ، إلاّ أن تنقل نقلاً حيّاً ، قصة الطاغوت والجهاد لإسقاطه ، من قلوب المخلــصين بسورية وكيف عاشوها ، إلى قلوب المخلصين في كلّ مكان .. وهم يناشدونهم أن يسمعوها ويعوها ، وأن يكون لهم موقفهم فيها ، وأن ينبنيَ على المعرفة والوعي والموقف عملٌ فعّالٌ لنصرة الحقّ في القضية

قصة الطاغوت

في الثامن من آذار/مارس عام 1963م كانت بداية المرحلة المعاصرة من تاريخ سورية بانقلاب عسكري مشؤوم ، أوصل (حزب البعث العربي الاشتراكي) بتشكيلته الأصلية إلى السلطة ، وأنهى عهداً كان فيه بعضُ الحرية على علاّته

وكان لنغمة القومية العربية بعد أن عزفت لها الأبواق أكثر من خمسين سنة بعض القدرة على إثــارة عواطــف الناس ، واستقطاب مشاعرهم الحماسية ، بربط آمالها الصادقة .. بشعارات برّاقة : بالوحدة ، فمنذا يرفض تحقيــق الوحدة ؟ .. بعدم الانحياز ، فمنذا يريد تبعيةً لشرقٍ أو غرب ؟ .. بالقضاء على الكيان اليهودي في فلسطين ، فمنذا لا يقدّم الغالي والرخيص لاستعادة الأرض المباركة ؟ ..

وكان حزب البعث العربي الاشتراكي ، سواء في ذلك العاملون فيه عن قناعة ، أو المخادعون لرفــاقهم ولعامّــة الناس .. كان يحسن العزف على أوتار هذه النغمة ، إلى أن تقطّعت الأوتار بأيدي أصحابها ، من حــزبيين بمــصالحَ أنانية ، أو منتفعين بمطامع دنيوية ، أو عسكريين يمتطون الحزب وشعاراته لتسلط بعد تسلط .. فإذا بهم جميعاً يقضون على بعضهم البعض ، ويفضحون أعمال بعضهم البعض ، كلما استنفذت فرقة رصيداً قد جمعته بالشعارات فانكشف أمرها أمام الشعب كله وانتهى دورها ، قضت عليها فرقة أخرى ، فلعنتها ، ولعنت شعاراتها .. ثم سارت في نفــس طريقها ، وسلكت نفس مسلكها ، ورفعت نفس شعاراتها ، ومن يُردِ الدليل فله ألف دليــل ودليــل في صــحفهم وكتاباتهم وكتبهم منذ ظهورهم إلى اليوم

والشعب صابر لا يتجاوز الهمس بما يجري همسا

وتسربت عناصر طائفة العلويين ، أو النصيريين ، أو الجزء الكبير الحاكم حالياً من بين فرقها المتعددة .. تــسرّبت إلى السلطة عبر الحزب والجيش ، وكانت أقدر من سواها على المكر والخديعة والــبطش .. فاســتقرّت الأمــور في أيديها ، وما طال استقرار الأمور في أيديها إلى الآن ، إلاّ لتلاقي مصالحها ومطامعها الأنانية مع ما تريده المخططات الدولية للمنطقة من أوضاع

كما أن لهذا الاستقرار سبباً آخر قدمه أحد أجنحة الحزب من قبل .. فقد استيقظ شعب سورية في العاصمة ذات يوم على أصوات طلقات النار ، وتناقلت الألسنة الأخبار : انقلاب عسكري جديد في وضح النــهار .. ولم يمــض يومان ، إلاّ وأُعدم 21 شخصاً من المتهمين بمحاولة الانقلاب وقد فشلت .. فكان ذلك مطلع مرحلة بطش علــني ، مرحلة قتل ترتكبه السلطة بأسلوب محاكمات صورية ميدانية .. بعد أن كانت معظم الفرق الأخرى من قبل تكتفــي بسجن معارضيها أو نفيهم أو ملاحقتهم ، فضلاً عن سبابهم

ولقد أوجدت موجة القتل الجماعي العلنية صدمة إرهاب عنيفة في قلوب الكثيرين .. فما إن سقط القتلــة عــن سدة الحكم –ولم يكن المهم عند الشعب اتجاه المقتولين أنفسهم– حتى وجدت الشعارات البراقة المعتادة ترفعها الفرقة الجديدة المتسلطة بعض التصديق الحذر عند كثير من الناس ، ثم قضت هذه الفرقة أيضاً على بعض من استعانت بهــم للتسلط ، لتنفرد وحدها بكرسي الطاغوت

وكان الكثير من المخلصين الواعين لحقيقة الأحداث وأبعادها وأشخاصها .. يقدرون ما سيأتي علــى الــبلاد ، وصحّ تقديرهم ، فقد بدأ تنفيذ المخطط الموضوع

تسريحات للضباط الأكفاء من الجيش فوجاً بعد فوج

منح الرتب بلا حساب للضباط الصغار المنتمين إلى الطائفة المتسلطة

تأسيس سرايا الدفاع والقوات الخاصة من أبناء الطائفة وتسليحها بأحدث الأسلحة الفتاكة

ربط مصير أفرادها بمجموع مصير الطاغوت الحاكم بمختلف الأساليب .. بين إثراء غير مشروع إلى درجة البطر بعد الفقر ، وبين ترهيب مما قد يجري على أيدي فئات الشعب الأخرى المحرومة من الكلام والطعام

وما تردّد هؤلاء في البطش ، وما تقاعسوا عن حماية أنفسهم من المصير المصوّر لهم بحماية النظام الطاغي نفسه من السقوط

ولا يزال الشعب الصابر يكتفي بالهمس .. وبالصبر

وربما نظر (المراقب الخارجي) إلى مجرى الأمور في تلك المرحلة المبكرة ، فسمّاها تثبيتاً لدعائم الحكـــم أو حمايـــة لمكاسبه أو ما شاء من التسميات المتداوَلة ، أما ابن الشعب فكان يراها من زاوية أخرى ، زاوية الوقائع اليومية

ويوم أول استفتاء على شخص رئيس الجمهورية العسكري ، وبعد التطبيل والتزمير لهذا المظهر من مظاهر (تقرير الشعب أموره بنفسه) .. لم تكمن المسألة عند ابن الشعب العادي مسألة عدم وجود سوى مرشحٍ واحد قاعدٍ ســـلفاً على كرسي الحكم فوق الرشاشات والدبابات ، ولا مسألة تزييف وتزوير مؤكّدين لا نجاحَ له دونهما ، بل كانـــت مسألة عزوف عن المشاركة في هذه المسرحية أصلا .. فذاك هو الخيار الوحيد المتبقي لديه

وعزف الشعب عن التصويت .. ويذكر كاتب هذه السطور كيف امتنع عن التصويت على أمـــر مقـــرر دون تصويت ، فقرع بابه بعد الظهيرة ، وظهرت امرأة بيديها أوراق تقول ، إنّ الإقبال على التصويت في الحـــي كـــان ضعيفاً للغاية ، ولهذا فهم يتجولون على البيوت لجمع الأصوات .. ولم يفكر آنذاك بتلك الطريقة المبتكرة ، وأنـــه لا حاجة لهم بها في الأصل للخداع ولإعلان نسبة الـــ 99% المعتادة .. ولكنّه لجأ إلى (الكذب) سائلاً الله المغفـــرة .. فقال إنّه أدلى بصوته ولكل فرد صوت واحد ! .. كلاّ ، هذا جهل ! .. فقد واجهته المرأة بقولها (لا بأس .. تنتخب مرة ثانية) ! .. وأدلى بصوته رافضاً ذلك الرئيس المفروض على الشعب

وما كان الأمر في حاجة إلى دليل عند أبناء الشعب .. ولكن الطغاة كانوا يقدّمون له من خلال الوقائع اليوميـــة الأدلة بعد الأدلة ، على أن وجودهم كله لا شرعية له ، ولا يمكن أن يثبت بغير التزييف والطغيان

كان أبناء الشعب يرون كيف زحف العديد من أبناء الطائفة ، وقد أثروا ثراءً جديداً مفاجئاً على عدد من أحياء المدن التي اشتهرت بثرائها ، فأجبروا أصحابها على بيع بيوتهم لهم بشتّى السبل ، أو صادروها لـــ (مصلحة الـــوطن) و(أمن الدولة) .. ومن كان يسير في حي (عدنان المالكي) و(أبو رمانة) و(الروضة) في دمشق كمثال ، كان يرى في كل يوم فوجاً جديداً من الحرس ، من سرايا الدفاع خاصة ، ينتشرون انتشار الجراد ، يحيطون بأفخم العمارات ، قد

رفعوا رشاشاتهم ، يبعدون بها عن جدار العمارة كل من يتجرأ ، أو من يخطئ فيسير على الرصيف الملاصــق لبيــت فلان أو فلان من رجال الحكم وأزلامه

وأبناء (الزبداني) المصيفِ القريب من دمشق ، يعلمون كيف كان جند سرايا الدفاع يقتحمــون البيــت الــذي يعجبهم اقتحاماً ، ويطردون أهله منه شر طردة ، ويحتلونه ليتمتع قادتهم بأيام الصيف فيه .. فهل من يجــرؤ علــى الاحتجاج ؟؟ ..

من تجرأ واحتج .. ليس على مصادرة بيته أو إهانة أفراد أسرته فيه ، بل مَنْ زلّ به اللسان بكلمة لا تدل علــى (الاحترام) إزاء واحدٍ من سرايا الدفاع صادفه في حافلة ترام أو سيارة ركوب جالساً بجانبه ، أو رآه يتحرش بإحدى المحجبات فدفعته غيرته ونخوته لكلمة حق .. من تجرأ واحتج هكذا أُشبع ضرباً في مكانه ، وهو محظوظٌ في ذلك أن لا يُساق إلى (التحقيق) لدى المخابرات ..

وإنّ كاتب هذه السطور ليعرف معرفةً مباشرة العديد من الأمثلة ، لفتيات تلقيّن شر الإهانــات والتحرشــات جهاراً نهاراً ، لرجال مسنّين وجدوا من الضرب المبرح على قارعة الطريق ما أقعدهم في الفراش أياماً وأسابيع عديدة ، لتلاميذ مدارس أصيبوا من الإصابات الجسدية ما أعجزهم عن مواصلة الدراسة ..

ومنذا الذي يمكنه التجرؤ على الاحتجاج أو الشكوى .. وأهلُ المدن السورية يرون ظهور (سيارات اللاند روفر والمرسيدس) (تحيط فجأة بأحد الأبنية في الحي الذي يسكنون فيه ، ويدركون على الفور أن المخابرات أنشأت مركزاً في ذلك البناء .. وسرعان ما يهجر البناءَ بقيةُ ساكنيه ، وسرعان ما تفرغ الأبنية المجاورة من أهلها .. فــإذا بمركــز المخابرات يتّسع ويتّسع ليشمل ربع الحيّ كله أو أكثر .. بالأقبية المجهزة أحدث تجهيزٍ للتعذيب ، وبالمنازل الموزعــة على من يمارسون التعذيب و(أحبابهم) من الطائفة الحاكمة والمنتفعين حولها

واختلطت همسات الشعب بالخوف من البطش

وما كان ينتشر بالتدريج في مجال السيطرة على الجيش ، وإقامة قوى عسكرية جديدة أكثر ضماناً منــه لحمايــة الحكم ، والتسلّط على البيوت في كلّ مكان ، وانتشار مراكز المخابرات بأنواعها في كلّ حيّ كبير وصغير .. كــان يرافقه خطوةً بخطوةٍ انتشار اللصوصية على أوسع نطاق

وربما وجد (المراقب الخارجي) لتلك الأعوام من عهد الطاغوت ألفاظاً أخرى يسجّلها في صحيفته أو كتابــه .. ربّما قال بانتشار الرشوة والفساد ، والثراء غير المشروع ، والاقتصاد القائم على المحسوبيات والقرابات .. أمّا شعب سورية فلا يعرف ذلك إلاّ بأنه (لصوصية) جعلت نظام الحكم عنده (عصابة لصوص) إلى جانب أنها (عصابة مجرمين) ..

ومنذا الذي لا يعلم من أبناء الشعب المحروم ، أنّ في جهاز الحكم المتسلّط (تجّاراً) لا يعلمون بالتجارة ، وإنّمـــا يحصدون الأرباح الطائلة بمشاركتهم عشرات التجّار في أرباحهم ؟ .. وهؤلاء ، يجد أبناء الشعب في محلاّتهم التجارية أحدث المنتجات الغربية ممّا لا يجدونه في محلاّت أخرى ، لأنّها في الأصل ممنوعٌ استيرادها .. إلاّ على رافعي شـــعار (الاشتراكية) .. فعندما تقدّم أوراق الاستيراد إلى الدوائر الجمركية وعليها اسم فلان ، والموظف يعلم كبقيـــة أفـــراد الشعب أن وراء فلان شريكاً رأسمالهُ سرايا الدفاع والمخابرات .. فحذارِ حذار أن يتلكّأ لحظةً واحدةً في تسيير المعاملة ، وحذار أن يحاول أخذَ رشوة عليها كما عوّدته الدولة أن يفعل مع معاملات سائر المواطنين .. العاديين

لقد عاش أبناء سورية قصة الطاغوت أحداثاً يومية ، يعرفها الشعب على اختلاف فئاتـــه .. يعـــرف صـــفقات سيارات (الفولكس فاجن من طراز جولف) وسيارات (البيجو) الفرنسية ، وحوادث اختطاف السيارات الألمانية من طراز مرسيدس من أصحابها الزوّار أو التجّار .. لتظهر بعد فترة وجيزة وعليها رقم ما ، قد كُتب بخط اليدّ ، فيدرك الجميع أنّها أصبحت سيارة مخابرات ، أو سيارة فرد من أفراد سرايا الدفاع ، أو أحد المسؤولين (الكبار) في جهـــاز الحكم الطائفي .. وحذار حذار من الشكوى ! .. كما يعرف الشعب من القصور المشيّدة في أنحاء سورية ما لا يعرفه أمراء البترول بقصورهم المنتشرة في أنحاء العالم ، يعرفها .. ولا حاجة للسؤال عن أصحابها ، فالحرس والرشاشـــات تدلّ عليهم

ولا يزال الشعب يلتزم الصبر ويكتفي بالهمس

ولكن كان أيضاً ما يُطاق معه صبرٌ ، ولا يُكتفى فيه بالهمس

إنّ دمشق .. وحلب .. وحمص .. وحماة .. وغيرها من المدن السورية ، تعرف عشرات القصص الواقعية فيها ، يشيب لهولها الولدان ، ويشمئز من مرتكبيها كلُّ وجدان ، وتستيقظ بها أشدّ الضمائر مواتا

أربعةٌ من رجال المخابرات يدخلون مدرسةً من مدارس البنات ، ويطلبون باسم سلطة الدولة فتـــاةً أو اثنـــتين أو أكثر .. وتمضي الأيام ، وتعود الفتيات لذويهنّ وقد اغتُصب شرفهنّ ، ولا حاجة لتفصيل

رجالٌ بألبسة سرايا الدفاع ، يعترضون طريق زوجين في أحد الأحياء ، فيعتدون على الرجل ضـــرباً مبرّحـــاً ، ويختطفون زوجه أمام ناظريه .. فإذا قُدّر لها يوماً أن تعود .. تعود وقد اغتُصبَ شرفها ، ولا حاجة لتفصيل

ولا حاجة أيضاً لسرد المزيد من الأمثلة .. وفي الجعبة مزيدٌ ممّا يحرق ذكرَه قلب كاتب هذه السطور كما حـــرَّق العشرات .. المئات .. وربّما الألوف من قلوب عامّة الشعب في سورية

أن ينتشر الفساد عبر دور السينما وعلى شاشة التلفزيون وعلى خشبات المسارح وفي صفحات المجـــلات وفـــق

تخطيط مدروس .. ذاك أمر يمكن أن يطيقه كارهاً شعب سورية ، ويسعى المؤمنون فيه جهدهم ليحفظــوا أبنــاءهم وبناتهم من تفسّخ الأخلاق والانحلال والتردّي

أن تُسرَق ثروات الشعب اغتصاباً ، وتصادَر حرياته عدواناً ، ويتلقى رجاله وشبابه وشيوخه الاعتقال والتعذيب ظلماً وطغيانا .. كلّ هذا يدخل في حدود الصبر على الضيم والخوف من مزيد من الإرهاب ..

أمّا أن لا يأمن الرجل على ابنته ، والزوج على زوجه والأخ على عرض أخته .. فذاك ممّا جعل الهمس يتــصاعد إلى درجة الشكوى ، والشكوى إلى درجة التذمّر والتمرّد ، والتمرّد إلى درجة السؤال العلني : مــتى الخــلاص ؟ .. والجواب في قصة الجهاد

لكنّ لقصة الطاغوت بقيةً تذكر .. ولو أطلق العنان لذكر كل فصولها لما انتهى الحديث حيث لا بدّ من ختامه

مخطّط الطائفية المتسلطة على الحكم يمضي تنفيذُه خطوة فخطوة .. والتركيز الأكبر فيــه علــى صــغار الفتيــة والأطفال .. هؤلاء يجب تربيتهم على الانصياع التام والولاء الكامل للطاغوت .. حتى لا يكون منهم مجاهد . ويجري ذلك على قدم وساق بتبديل مناهج التعليم منذ البداية ، وإقامة المعسكرات لصغار الأطفال ، وإجبار الأهــالي علــى إرسال أبنائهم وبناتهم إليها ، وإقامة المعسكرات المختلطة للفتية والفتيات ، ودفعهم فيها دفعاً إلى التخلّي عمّا يمــسك بهم أن يكونوا أداةً طيّعة يصنع بها الطاغوت ما يشاء

ثم بعد أن أعدّت الطائفة الحاكمة خلال بضع سنين فوجاً من أبنائها كـ (مدرسين) ، كانت الحملة الواسعة النطاق لإقصاء كل من يقول لا إله إلاّ الله مخلصا .. من سدّة التدريس إلى التسريح التعسّفي ، أو النقل الإجبــاري لــوزارة التموين والدوائر الجمركية ودوائر الإحصاء وأمثالها .. بعيداً عن الجيل الجديد .. لِيُسَلَّم الجيل الجديد إلى توجيه مــن يمجّد الطاغوت ليل نهار .. لأنّه جزء منه

شعب سورية لم يعد يتحمّل السكوت .. ولكن تحرّك المخلصين الواعين منذ البداية .. كان لا يزال محدوداً ضيّق المجال ، وكان الحكم الظالم القائم قادراً بعدُ على عزل المخلصين عن المخلصين ، كيلا تتحوّل جــذوة الجهــاد إلى بركان .. فإذا بالبطش ينــزل بكل من يتمرّد هنا وهناك والشكوى هنا وهناك علــى مــستوى الــشعب ، عامّــة الشعب .. فإذا بالبطش ينــزل بكلّ من يتمرّد أو يشكو .. أو يستمع لشكوى ، وإذا بالإرهــاب يــصل إلى ذروة جديدة لم تكن الأخيرة .. وإذا بمئات الأسر تستيقظ لتجد ابنها قتيلاً بعد تعذيب رهيب ، أو مشوّهاً لا يقدر علــى الكلام فضلاً عن الحركة ، أو مفقوداً لا تعرف له مكاناً ولا مصيرا ..

وأدرك شعب سورية أنّه هو الذي يحمل المسؤولية الأولى للإجهاز على الطاغوت وقد بلغ به الأمر مداه

وأدرك شعب سورية أيضا .. أن الطاغوت يصنع بطغيانه نهايته على يديه.

للقصة بقية ..